فهم الطبيعة الانسانية

للدكتور الفرد ادلر العالم النفسي

[الدكتور الفرد ادلر من اكبر علماء النفس في النمسا وهو طبيب وباحث نفسي. ومع انهُ يُعد من اتباع فرود فقد غير تعاليم تلك المدرسة التي اسسها فرود والتي تذهب الى تقرير ان خلق الانسان وسلوكه مرتبطان بحياته الجنسية . فالدكتور ادلر لا يرى العوامل الجنسية وحدها كافية ان تدفع الانسان الى حياة محتومة عليه بل يرى ان الخلق والسلوك نتيجة لعوامل اكثر تعقيداً من العوامل الجنسية فهو يتعمق في درس هذه العوامل ويردها الى سني الطفولة وبما يؤثر فيها . وعنده ان كل شقاء الرجولة او نجاحها منطوٍ في المعاملة التي يعامل بها الطفل او ما ينطبع في نفسه منها . والطفولة عالم عظيم مجهول في نفس الطفل تحرك اشد الاحساسات اضطراماً واكثرها خطراً بدون ان يجد من يفهمهُ . وهذا الاهمال او تشجيع احساس معين هو الذي يقرر مصير الانسان

وقد قضى الدكتور ادلر ١٥ سنة يبحث ويختبر هذه النظرية وهذا اسس في المدارس في فينا « العيادات النفسية للاطفال » ووضع تلاميذهُ ومساعديه لتدوين نتيجة هذه الاختبارات العلمية . وقد تناول هذه الاختبارات النفسية وبسطها للناس في شكل محاضرات القاها على الوف من المستمعين في نيتا . ثم طبعها في كتاب مستقل ترجم الى اكثر لغات العالم

ونحن نوجه نظر وزارة المعارف الى افكار الدكتور ادلر لانها حقيقة بالدرس وخليقة ان تؤثر في نظم التعليم وبرامجه . وسنلخص كل محاضراته تباعاً في « المقتطف »]

لماذا يوجد شيء اسمهُ علم النفس ؟ هل الغاية ان تزيد عدد الخبراء في العالم فيكون لنا خبراء في علم النفس كما ان لنا خبراء في الطب والمعادن والفلسفة مثلاً ؟ هكذا يفتتح الدكتور ادلر بحثه ليقرر ان غاية علم النفس ان يتعلم كل انسان شيء من فهم الطبيعة الانسانية كواجب لا بد منهُ في الحياة . فاذا كان لا بد من الخبرة والاختصاص في هذه الناحية من العلم فيجب الا تكون النتائج العلمية وقفاً على الخبراء بل ملكاً عامًّا للناس وذلك لان اكبر مصائب الانسانية هي نتيجة جهل الانسان بمن حوله . ثم سوء حكمه عليهم لانهُ يجهلهم . والناس الآن يعيشون في عزلة خطرة — عزلة كانت في العصور السالفة مستحيلة اذ كانوا اكثر احتلاطاً منهم اليوم . نحن الآن قليلو الصلات بالانسانية لاننا منذ طفولتنا معزولون عن الغير والحياة العائلية هي التي تضرب علينا نطاق هذه العزلة

ولكن ضرورات الحياة تحتم علينا ان نقترب منهم لكي نفهمهم . يجب ان نطمئن الى الغير لكي نفهم ما يجري في ضمائرهم وتنطوي عليه نفوسهم لان العزلة وقلة الاختلاط باخواننا من الناس تدفع بنا الى كراهيتهم وحسبانهم اعداء لنا . فسلوكنا نحو الغير — وبالضرورة حكمنا عليهم — يقوم على الخطإ لاننا لا نفهم الطبيعة الانسانية فهماً كافياً . ومن الحقائق التي اصبحت مألوفة لكثرة تكرارها ان الناس يجتمعون معاً ويتحدثون ولكنهم يظلون في عزلة لانهم يختلطون وكل فرد ينظر الى الآخر كغريب مجهول لا في المجتمع فقط بل في دائرة الحياة العائلية الضيقة النطاق . ولا توجد شكاة اكثر من ترديدها اكثر من الشكوى من ان الآباء لا يفهمون الابناء وان الاولاد غير مفهومين من والديهم

ان سلوكنا نحو الغير يقوم على مقدار فهمنا لهم تحتم امام ضرورة محتومة تقضي ان نفهم الغير — هذا الفهم الذي هو الاساس الحقيقي للعلاقات الاجتماعية والناس كفيلون ان ينشئوا مجتمعاً تسوده الالفة اذا اتسعت معارفهم لفهم الطبيعة الانسانية

ولكن كيف السبيل الى درس الطبيعة الانسانية ووضع علم حقيقي لمسائل نفسية معقدة؟ يقول الدكتور ان العلوم الطبية تسعفنا في هذا الصدد . فالتطبيب النفسي[1] اصبح علماً يتطلب معارف نفسية واسعة النطاق . فالعالم بالتطبيب النفسي يجب ان ينفذ ببصره الى اعمق اعماق نفسية المريض العصبي الذي يستشيره . ويجب ان يكون حكمه سريعاً ودقيقاً في آن واحد . ففي هذه الناحية من العلوم الطبية لا يستطيع الانسان ان يصدر حكمه ويصف العلاج ويرتب طرائق المعيشة الا اذا كانت معرفته بخفايا النفس وما تنطوي عليه اكيدة وتامة . وكل خطأ في هذا الصدد متبوع حتماً بعقاب عاجل وفهم العلة على حقيقتها متبوع حقاً بنجح العلاج . وبعبارة اخرى ان علم التطبيب النفسي يعطينا امتحاناً صحيحاً في فهم الطبيعة الانسانية . وفي الحياة العادية لا يستلزم ان يكون الحكم الخاطيء في فهم الغير متبوعاً حتماً بنتائج مثيرة للدهشة والعجب لان النتائج قد تحيء بعد فترات طويلة من تاريخ الخطأ فتضيع الصلة بين الخطأ ونتائجه . ومن هنا تحيرنا ودهشنا اذ نكتشف خطاءنا في فهم نفسية انسان آخر وحكمنا عليه . ولهذا كان فهم الطبائع الانسانية واجباً لزاماً وضرورة لا مفر منها

وابحاثنا في الامراض العصبية دلتنا على ان الغرائب النفسية والتعقيدات والاغلاط التي تصحب عادة هذه الامراض ليست مغايرة في حقيقتها وجوهرها مغايرة بعيدة الاثر للعوارض والطوارىء التي تلم بالانسانية العادية . فالعوامل نفسها والمقدمات نفسها ونفس النشاط في الحالتين — الاغلاط نتيجة الامراض العصبية والاغلاط التي تصدر من اشخاص عاديين — واحدة وكلاهما مادة للدرس والتحقيق في فهم الطبيعة الانسانية . والفرق

(١) لعل اقرب ترجمة لكلمة Psychiatry هي « علم التطبيب النفسي »

الوحيد هو ان في الأمراض العصبية تبدو هذه الاغلاط واضحة مكبرة وتصبح اكثر قابلية للخضوع للدرس والتفسير . وقيمة هذا الاكتشاف خطيرة اذ انا من الحوادث الشاذة وغير المألوفة نتعلم كيف نبحث ونهتدي الى مصادر الخطإ وبواعث السلوك في الحياة العادية المألوفة . والمسألة كلها مسألة تدريب وصبر للوصول الى هذه الغاية

والاكتشاف الاول العظيم الذي وقع عليه الباحثون هو هذا : ان اكبر العوامل التي تكوّن الحياة النفسية تخلق في اول ايام الطفولة . ولم يكن هذا الاكتشاف — كاكتشاف مستقل — بعيد الاثر . فقد وقع كثيرون في العصور الماضية على شيء من هذا الاكتشاف ولكن الجديد فيه هو اننا اصبحنا قادرين ان نربط اختبارات الطفولة ومؤثراتها ونوازعها — على قدر ما يتهيء لنا من طرائق الحكم عليها وتقديرها — بمظاهر الحياة النفسية كما تتضح بعدئذٍ في ابان الحياة ، في شكل واحد لا يتغير . وبهذه الطريقة يسهل لنا ان نقابل بين اختبارات الطفولة ونوازعها وبين الاختبارات والنوازع التي تجيء مع حياة الرجولة . وخطورة الاكتشاف في هذا الصدد قائمة بان المظاهر الفردية في الحياة النفسية لا تكفي ابداً ان تكون وحدات مستقلة كافية — كل مظهر على حدته — لتكوين حكم صحيح . بل نعلمنا ان فهمنا لهذه المظاهر لا يكون صحيحاً الا اذا القنا بينها وعددناها وحدات مترابطة تؤلف وحدة كاملة لها اثرها في توجيه تيار النشاط الانساني . نعم اننا لا نفهم هذه الظواهر الا اذا اكتشفنا اسلوب الفرد في حياته تاماً واضحاً واظهرنا ان الغاية الخفية التي توجه الطفولة في سلوكها هي الغاية نفسها التي ترافق الانسان في حياته . وبمعنى اقرب انه وضح وضوحاً يبعث على الدهشة انهُ من ناحية النشاط النفسي لا يوجد فرق بين نوازع الطفولة وبين نوازع الحياة في ابان الشباب والرجولة . قد تطرأ تغيرات على الظواهر النفسية ولكنها تغيرات شكلية لا تعدو الظاهر . ان الغاية الخفية الاصلية والمحرك الحقيقي للحياة هما في الطفولة وسائر اطوار الحياة واحد لا يتغير فالرجل الذي تأخذه القلق والذي لا يبرح ذهنه يلتفت الى ناحية الشك وسوء الظن بالغير والذي يكد بلا ملل لكي يعيش في عزلة ويضع حول نفسه نطاقاً يفصل بينه وبين الناس — هذا الرجل هو نفس الطفل في الرابعة من عمره وان كانت هذه الظواهر تتخذ في الطفولة اشكالاً تافهة يسهل ادراكها واكتناه ما وراءها . ومن هنا وضعنا لانفسنا قانوناً لابحاثنا وهو ان يكون مجهودنا متجهاً لدرس طفولة المرضى جميعاً . ولذلك استطعنا ان نخلق تشاكلاً بتفسير حياة اي انسان ظفرنا بمعرفة طفولته . فما نعرفه عنهُ وهو رجل مكتمل يكون حقيقة كاملة لحياته وهو طفل . واذا استمعنا المريض يقص علينا ذكريات طفولته وعرفنا كيف نفسر هذه الذكريات استطعنا ان نعلم حقيقة سلوكه واخلاقه وهو رجل

ونحن في هذا المزع انما نستفيد من الواقع وهو ان الفرد لا يستطيع ان يفلت من تأثير الطفولة الا بأكثر الجهد والعناء. وقليلون جداً الذين استطاعوا ان يغيروا من حياتهم وهم كبار وان كانوا وجدوا انفسهم بعد تحطيم زمن الطفولة في احوال ومراكز مختلفة. وتغيير نزعة الحياة في الرجولة لا يتطلب بالضرورة تغيير وحدة البواعث الأساسية للسلوك فالحياة النفسية لا تغير من قواعدها. فالانسان يحتفظ بطرائقه في السلوك في طفولته وفي رجولته وبذلك نفهم ان غرضه في الحياة لم يطرأ عليه تغيير

وهناك سبب آخر يبعثنا على حصر اهتمامنا في اختبارات الطفولة اذا اردنا تغيير القالب الذي على مثاله تتكون الأخلاق وتتجه السلوك. ولا شأن قط لتغيير اختبارات الرجولة والمؤثرات فيها لأن المهم هو اكتشاف القالب الذي اتخذ لطبع الاخلاق به. فاذا فهمنا هذا الطابع استطعنا ان نفهم حقيقة اخلاق المريض وفسرنا علته تفسيراً صحيحاً

ومن هنا كانت حياة الطفولة هي القاعدة الأساسية لفهم الطبيعة الانسانية. ولهذا اتجهنا بأكبر نصيب من ابحاثنا الى فحص الطفولة وتحليلها تحليلاً دقيقاً. وفي هذا الصدد يوجد مجال واسع للباحثين وتوجد مادة لم تمس حتى الآن يمكن ان تكون أساساً لاكتشافات جيدة في علم النفس

ولما كانت هذه الابحاث لم تقم لمجرد البحث بل لكي تقدم للانسانية نتيجة ترفع من قيمتها وتسد نواحي النقص فيها فقد وقفنا على اساليب لمداواة النوازع الخلقية السيئة وهكذا امتدت ابحاثنا في حدود علم التربية بدون قصد يرمي الى هذه الغاية. وعلم التربية منجم عظيم لمادة لا تفد للذين يريدون ان يكتشفوا مجهولات النفس الانسانية لأن علم التربية — كعلم فهم الطبيعة الانسانية — لا يستمد مادته من الكتب بل من صميم الحياة

وقبل ان نتناول هذا البحث بشيء من البسط يجب ان نرد على اعتراض لا بد ان يكون قد ثار في ذهن القارىء عند تأكيد الفكرة القائلة ان اسلوب الفرد في حياته لا يتغير وان تغيرت ظروف حياته واختلفت احوال الطفولة عن احوال الشباب والكهولة. ومصدر الاعتراض هو انه توجد اختبارات جمة تعترض الانسان في حياته فكيف لا يتغير سلوكه

وهنا نرجو ان يفهم ان تفسير الاختبارات يختلف باختلاف الناس ولا يوجد اثنان في الدنيا يفسران اختباراً بعينه اصابهما تفسيراً مماثلاً. ومن هنا نفهم ان اختباراتنا وما يقع لنا لا يجعلنا بالضرورة اكثر مهارة وأشد يقظة. وصحيح ان الانسان يكتسب بعض الخبرة من تجنب بعض المصاعب. وقد يتخذ حيال مصاعب اخرى مسلكاً فلسفياً ولكن القاعدة البعيدة الغور في صميم النفس لا تتغير كنتيجة من اكتساب شيء من الخبرة. وسنرى في سياق هذا البحث ان الانسان يخضع اختباراته وتجاربه لاسلوبه في الحياة ***